تقديم

عاشق الجمال والتجليات الروحية

هذه دراسة بديعة شائقة، لا تصدر إلا من عالم رائد، على درجة عالية من التخصص فى العمارة والتخطيط البيئى. امتلأ وجدانه بعشق الجمال وأقباس الروحانية. من هنا كان اتساعها لما تضمنته من أبعاد حضارية وبيئية وروحية. وامتلاؤها بكيمياء الشعر وحرارته فى نماذج رفيعة من الإبـداع التعبيرى والتصويرى، والمؤلف يأخذ بأيدينا وألبابنا إلى تجليات الحديقة الإسلامية فى تصميمها الذى جمع بين «المعرفة العلمية والنزعة الفنية والامتلاء الروحى».

ولقد أتيح لى فى مستهل حياتى العلمية ـ وأنا بعُدُ معلم للغة العربية فى مدرسة النقراشى النموذجية، فى حدائق القبة. بالقاهرة ـ أن أتعرف على مؤلف هذا الكتاب: الدكتور صفى الدين حامد، وهو طالب بالسنة الثالثة الإعدادية، وأن أكتشف استعداده المبكر وميله للهدوء والتأمل العميق وسيطرة النزعة العقلية على أسلوبه فى التفكير. وكانت عيناه الناقدتان من خلف نظارته الطبية تكشفان عما تمتلئ به جوانحه ومداركه من وعى يفوق سنوات عمره، يؤكد تمايزه ونضجه المبكر، وتفوقه المعرفى على أقرانه. وعندما ضربت يد السنين بيننا ـ تركت أنا العمل فى التعليم إلى المجال الإعلامى واتجه هو إلى دراسة الهندسة المعمارية فى جامعة القاهرة، منطلقًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الماجستير والدكتوراه ـ كنت سعيدًا بأن أتلقى منه بعد سنوات طوال من

البعاد والانقطاع، بطاقة تحية، تؤكد لى ما توسمته فيه وراهنت عليه عندما كان فى الثالثة عشرة من العمر. لقد أصبح الصبى الطموح أستاذًا فى الجامعات الأمريكية، وأصبح الدكتور صفى رائدًا فى حقول العمارة والتخطيط والبيئة. مشاركًا فى هيئات ومنظمات دولية عديدة، وواضعًا لبرامج علمية تشهدها الجامعات العربية لأول مرة. وأصبح مقدرًا له أن يعود إلى بلده مصر ـ بين الحين والحين ـ خبيرًا ومستشارًا وأستاذًا رائدًا فى مجال تخصصة، وهو أمر ليس بالقليل.

لكن اللافت فى التكوين الإنسانى والمعرفى للدكتور صفى الدين حامد أنه يمثل أصدق تمثيل العالم المسلم المعاصر، فى معادلة مدهشة امتزج فيها العلم بالإيمان والنَّفس الروحى والحس الفنى المرهف، الأمر الذى يفسر اختياره عمارة الحديقة الإسلامية مجالًا لهذه الدراسة. واختيار عنوان الدراسة مستلهمًا من آية قرآنية: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، واتكاء منهجه على أسس راسخة متكاملة تجمع بين عناصر مادية وأخرى روحية، وتتغلغل فى أعمق أسرار الحديقة الإسلامية فى الأندلس ومدن فارس: أصفهان وشيراز وأشف، وإمبراطورية المغول فى القارة الهندية، من خلال رؤية ذات فضاء رحب متكامل ينتظم التنويعات المختلفة للحس الأساسى الواحد فى الجزيرة والمغرب وتونس ومصر وتركيا وصقلية والعراق والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية والصين وأوزبكستان. وأروع ما فى هذه الصفحات نجاح المؤلف وإبداعة فى الكشف عن العلاقة الوثيقة والتأثير الكبير للعقيدة والبيئة والثقافة فى تصميم الحديقة الإسلامية، من خلال الوصف القرآنى لجنات اليوم الآخر، وتأثير السنة النبوية، وتجليات هذا التأثير من خلال نماذج رائعة ومدهشة تتمثل فى حدائق العالم العربى المفقودة وحدائق قلعة الحمراء فى غرناطة بإسبانيا وبستان شالامار باغ فى باكستان، وحدائق بلاد فارس فى إيران، كما يتجلى فى تقسيم الحديقة أو البستان إلى أربع رياض يفصل بينها عنصر مائى يرمز لأنهار الجنة، على غرار اتساع الرياض الأربع فى الجنة لنزلائها الذين نصت عليهم الآية القرآنية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

ومؤلفنا ينجز دراسته البديعة والمدهشة وعينه علينا نحن أبناء هذا الزمان المتراجع فى أقطارنا العربية والإسلامية، بهدف فتح عيوننا على المألوف الذى اعتدناه دون تأمله أو نقده أو الرغبة فى تغييره، بعد أن ساد القبح وتراجع الجمال، وسادت العشوائية، وتراجعت الهوية والشخصية، واتسع المجال للتغريب ـ وبخاصة فى مجال العمارة ـ من غير مراعاة للشروط والأوضاع المناسبة لبيئاتنا وثقافتنا وحضارتنا، من أجل تحقيق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يومًا بعد يوم والبيئة الطبيعية التى تتلاشى تدريجيًّا، وإعادة الوجه العربى الإسلامى الأصيل لحدائقنا ولتصميم المواقع خلال مدننا، من خلال جهد مشترك ينهض به خبراء عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثون فى الحضارة الإسلامية العربية، وبخاصة أن فن تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ ـ عبر عصور تاريخنا الإسلامى ـ مستوى عاليًا من الشمولية الإنسانية، الأمر الذى أرضى جميع الأذواق محققًا البعدين: الفنى والجمالى.

الجميل أن المؤلف ـ فى دعوته إلى التمسك بالشخصية الإسلامية العربية فى تخطيط المواقع وتصميم الحدائق ـ لا يدعو إلى استعادة الماضى ومحاكاته وتقليده فى صورة حرفية توقف حركة الإبداع والتجديد. بل هى دعوة حافزة إلى التجديد الواعى، المستوعب فى وقت واحد للأصالة التراثية وابتكارات العصر، فى إطار ملاءمته ظروفنا وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية فى كثير من البلدان، بعد أن سيطرت روح التغريب والتقليد والحيرة الثقافية، وابتعدنا عن التميز الحضارى وعن تراثنا الفكرى الروحى.

فى الكثير من صفحات هذا الكتاب ينسكب على لغة المؤلف ماء الشاعرية ووهجها حين يعبر عن امتزاجه عقلًا وروحًا بتجليات فن عمارة البيئة فى منظومته الإسلامية العربية، وحين يعلق على آراء أساتذة عمارة البيئة الأجانب، فنحس أن لغته قد أصبحت لغة شاعر، استطاع بحسه المرهف أن يصغى لصوت العمارة ويستمع لغة الطبيعة ويحاور شتى الكائنات وعناصر الوجود من حيوان ونبات وجماد، وأن يتغلغل بوعيه فى عناصر الجمال ونورانيته المشعه فى الطبيعة والكون، وأن يستغرقه

البحث الدائب والولوج المعرفى إلى عالم النصوص الأدبية والشعرية المتناثرة كالعقد المنظوم فى ثنايا هذا الكتاب، تزينه وتجلو حقائقة وتوثق مادته المعرفية، وتضفى عليه طابعًا جميلًا ينتظم هذه العناصر، ويصنع منها مادته المعرفية، وعطره الروحى وأقباسه الفنية.

تبقى تهنئة من القلب للصديق العزيز والأخ الكريم الدكتور صفى الدين حامد أستاذ عمارة البيئة وعاشق الجمال وأقباس الروحانية، على إنجاز هذه الدراسة الرائدة، وفتح الطريق أمام من يجيئون بعده من الباحثين والدارسين.

فاروق شوشة

obeikan.com

مقدمة المؤلف

بدأت رحلتى مع الفنون الجميلة منذ الطفولة، من خلال مواد التربية الفنية وحصة الهوايات خلال سنوات المدرسة الابتدائية.

وما زلت أذكر جيدًا مدى التشجيع، بل والمعاملة المتميزة من الكثير من المدرسين كمكافأة لى على تفوقى ومهاراتى فى فن الرسم والنحت، وتصميم الديكور ات المسرحية الخاصة بفرقة التمثيل المدرسى.

وتجدر الإشارة إلى مدى أهمية البيئة المنزلية والمناخ العام فى المجتمع المحيط فى ترقية الحواس وتنمية الملكات الفنية عند الأجيال الشابة، فقد نشأت فى بيت كان يقتنى فيه والدى مكتبة لا بأس بها، تشمل خير ما تنتجه المطابع فى مصر فى ذلك الوقت مثل مجموعات «اقرأ»، وروايات الهلال و«كتاب الهلال»، إلى جانب الدواوين الشعرية المعاصرة، وكان أبى ـ رحمه الله ـ يحرص أيضًا على شراء المجلات الأسبوعية.

أما من وجهة نظرى، فقد كانت الهدية الكبرى وسط كل هذا هو العدد الأسبوعى من مجلة «سندباد» التى كانت تصدر عن دار المعارف، وكانت مخصصة للأطفال، وقد كنت أنتظر هذه المجلة بشغف شديد لقراءتها حرفًا حرفًا، واستمتع بمشاهدة وتقليد الرسومات الرائعة التى كان يساهم فيها كبار فنانى مصر مثل حسين بيكار والحسين فوزى، إلى جانب بعض أعمال والت ديزنى.

وكان طبيعيًا عند انتهائى من شهادتى الثانوية العامة بتفوق أهلنى لدخول أى كلية بأى جامعة مصرية أن أختار مجال الهندسة المعمارية؛ لعلاقته الوثيقة بفن الرسم الذى عشقته وتفوقت فيه من نعومة أظافرى، والتحقت فعلًا بكلية الهندسة جامعة

القاهرة فى عام١٩٦٢ ولاكتشف بعد ذلك ومن خلال العام الأول مدى الإحباط الذى يصيب شبابنا عندما تنهار أحلامهم أمام قوالب جامدة وأنظمة تعليمية تيبست بفعل الاغتراب وفقدان الثقة أو الجهل بالتميز الحضارى لمصر كبوتقة لحضارات عظمى فرعونية وعربية وإسلامية.

ومرت السنوات الخمس، وتخرجت حاملًا بكالوريوس «العمارة» وأنا لم أسمع أو أدرس قط عن الحديقة الإسلامية أو العطاء المتميز للشريعة الإسلامية فى مجالات صيانة البيئة أو تخطيط وإدارة المدن، فقد تعلمت كل هذا عند دراستى للماجستير والدكتوراه فى أمريكا، ومن خلال مراجع أجنبية وعلى أيدى أساتذة من أصول أوروبية أو أمريكية.

واسترجعت فى ذهنى الكم الهائل الذى درسناه فى مواد تاريخ العمارة وتاريخ الفنون والرسم المعمارى، الذى كان تركيزه على العمارة الإغريقية والرومانية والقوطية والأمريكية والفرنسية كمثل يحتذى به. أما المادة اليتيمة التى تناولت «تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر» فقد دامت ثلاثة أشهر فقط، وكان يغلب عليها السرد التاريخى الممل الجامد والخالى من أى حياة أو روح أو محاولة لربط الماضى بدروسه وعبره مع الحاضر بتحدياته وقسوته؛ حيث اختار الأستاذ المسؤول تناول الموضوع بطريقة أرشيفية وهى المتبعة فى كلية الآثار من خلال الوصف الجاف لكل مبنى بأبعاده ومواده وموقعه، بينما أهمل تمامًا الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات التى أنتجت مثل هذه المنشآت.

ولعل القارئ يقبل معذرتى فى مثل هذا الاستطراد أو التأملات الشخصية؛ نظرًا لأنى أعتبرها مهمة فى سياق الأسباب التى حفزتنى على المبادرة بكتابة هذا المرجع، وأنا حالم بقدوم يوم تتغير فيه أحوال التعليم الجامعى فى مصر وفى كافة أقطار العالم العربى والإسلامى.

وفى اعتقادى أن هذه هى الخطوة الأولى والأهم لمواجهة ما تعانى منه مدننا العربية اليوم من مشكلات فى الإسكان وازدياد فى المناطق العشوائية، وزحف للأحياء الهابطة، وتضخم فى الكتلة العمرانية والكثافة البشرية وانتشار الطابع الحضارى المشوه أو المستورد أو المفقود تمامًا.

ولا شك عندى أن أعداد المتخصصين القادرين على مزج عناصر الطبيعة من مساحات خضراء وأشجار ومياه مع قوالب الطوب وكتل الخرسانة وتبليطات الأسفلت لهو هدف مهم وعزيز ويجب السعى إليه فورًا، وخاصة وأن مدن العالم العربى قد مرت فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين بحركة عمرانية ضخمة وغير مسبوقة.

ويتردد إلى سمعنا اليوم أن سكان القاهرة ـ على سبيل المثال ـ قد قاربوا على ستة عشر مليونًا، ومع ذلك فإن نمو القاهرة والمدن الكبرى الأخرى مثل الدار البيضاء، وتونس، ودمشق، وبغداد، لا يضاهى تلك الطفرة العمرانية التى مرت بها المدن العربية فى الأقطار النفطية مثل الرياض وجدة، وأبوظبى، والدوحة، والكويت، ومسقط، التى شهدت حركة بناء لم يعرف تاريخ البشرية مثلها اتساعًا وشمولًا وسرعة.

ومن الواضح أن هذه التحولات العمرانية كان لها تداعيات اقتصادية واجتماعية وثقافية جمة؛ ولذا نركز اهتمامنا فى هذا الكتاب على الربع الأخير من القرن العشرين، حيث تضافرت هذه الطفرة المعمارية مع صدام حضارى كبير بين حضارة غربية مهيمنة وشخصية عربية إسلامية تأبى طمس هويتها، وتؤكد على ذاتيتها وخصوصية تراثها الحضارى، وعلى أهمية التعبير الحضارى المعاصر الذى يتماشى وهذا التراث.

وعلى هذا فمساهمتى بتقديم هذا الكتاب للقارئ العربى وأنا أعيش وأعمل لحقبة تزيد على الثلاثة عقود بالولايات المتحدة الأمريكية فى مجال عمارة البيئة لهو دعوة للمثقفين العرب عامة، بل صرخة للمتخصصين منهم فى مجالات عمارة البيئة وتاريخ الفن والتخطيط العمرانى، للقيام بدور عاجل وفعال فى تجديد هوية المجتمع، وفى وصل ما انقطع من سلسلة التطور الطبيعى فى الحضارة الإسلامية والثقافة العربية وفى تهيئة المناخ العلمى والثقافى والفنى فى الوطن العربى لمرحلة جديدة من التنمية المتوازنة والمستدامة والقائمة على مراعاة البيئة الطبيعية وإمكانياتها، واحترام الإنسان العربى واحتياجاته وأحلامه، ولعلهم فى هذا الصدد أن يستلهموا نفحات الشرق فيما يوحيه من جمال بيئته الطبيعية، وتاريخه الحافل الممدود، ولعلهم يجدون فى حقل عمارة البيئة، وفى ذكريات الحديقة الإسلامية أوسع نافذة لاسترجاع متعة النفس وطمأنينة القلب وسعادة الروح.

محاور الدراسة ومجالاتها

قد يتساءل الكثيرون من القراء: ماذا نعنى بالحديقة الإسلامية؟ هل هى كل بستان قام بتصميمه إنسان مسلم؟ أم هى كل متنزه يتم إنشاؤه فى قطر مسلم؟ أم كل حديقة يطلق عليها المسؤولون عن الأمر أو زاروها أنها حديقة إسلامية؟

مثل هذه الأسئلة وغيرها هى بعض ما ستتطرق إليها دراستنا فى هذا الكتاب، وإلى جانب ذلك سيتناول كل فصل من فصول البحث واحدًا من الأسئلة التالية:

* ما هى أهمية دراسة الحديقة الإسلامية عبر التاريخ؟ وما علاقة دراسة كهذه بما تواجهه المجتمعات العمرانية من تحديات وعقبات فى أنحاء العالم العربى والإسلامى اليوم؟
* ما هى المقومات والعناصر الأساسية للحدائق الإسلامية عبر التاريخ؟ وماذا يميزها عن حدائق الأمم والشعوب الأخرى؟
* ما هى مصادر الإلهام والمؤثرات الأخرى التى ساهمت فى تشكيل الطابع الخاص بالحديقة الإسلامية كما نشاهدها فيما تبقى منها حتى اليوم أو كما سجلتها الوثائق والمخطوطات التاريخية ؟
* ما هى الأبعاد الحضارية والبيئية والروحية التى أثرت على الفنان الذى ساهم فى تصميم وتنفيذ الحدائق الإسلامية التقليدية؟
* كيف نفسر التناسق والوحدة فى التكوين الفنى بين الحدائق الإسلامية المختلفة بالرغم من اختلاف قوميات منشئيها وتفاوت تاريخ تشييدها؟
* مادا نعرف عن الأفراد والجماعات الذين كانوا وراء عملية التصميم الهندسى والخلق الفنى والعمارة البيئية والإدارة العلمية لهذه الحدائق؟ ومن كان منهم من الرواد ومن كان من المستعملين؟
* كيف نستفيد من تراثنا الضخم فى حقل عمارة البيئة عامة، والحديقة الإسلامية خاصة؟ وما هى الخطوات المطلوبة لتحقيق هذه الفوائد فى المستقبل القريب والبعيد للأمة العربية والعالم الإسلامى؟

المدينة العربية

تعانى المدن التاريخية فى العالم العربى من مشكلات التضخم السكانى، وازدياد المناطق العشوائية، وتلاشى عناصر الطبيعة داخل الكتلة العمرانية.

وأخيرًا، أقدم شكرى لكل من ساهم وساعد فى إخراج هذا الكتاب إلى النور، وخاصة زوجتى وزملائى وأساتذتى وتلاميذى وكل الباحثين والمؤلفين الذين سبقونى فى الكتابة عن الحديقة الإسلامية، وعن عمارة البيئة عبر تاريخ الأمة العربية، وأخص بالذكر الصديق العزيز الدكتور زهير شهاب، الأستاذ بكلية الطب ـ جامعة تكساس ـ الذى قام بقراءة النص الأصلى ونقده، والأخ الكريم الدكتور فيصل بن مبارك، الأستاذ بجامعة الملك سعود، الذى تفضل بمراجعة الفصل الأخير ونقده، وكلاهما ساهم بملحوظات وإضافات قيمة فى هذا البحث. كما أود تقديم عميق امتنانى إلى الأستاذ

الفاضل صبرى الباجا الذى تبرع بالقراءة والطباعة والتعليق على النص الأصلى أثناء فترة زيارته للولايات المتحدة.

وأخيرًا وليس آخرًا، أشكر صديقى وزميل دراستى المهندس عادل المعلم الذى اهتم وشجع على كتابة هذا العمل منذ كان فكرة فى ذهن المؤلف.

د.صفى الدين عبد الحميد حامد

أستاذ عمارة البيئة بجامعة تكساس

لوبوك ـ تكساس

الولايات المتحدة الأمريكية

obeikan.com

«سلوا عن ديار الشام ورياضها، والعراق وسوادها، والأندلس وأرباضها. سلوا مصر ووادیها، سلوا الجزيرة وفيافيها، سلوا الدنيا ومن فيها. سلوا بطاح إفريقية، وربوع العجم، وسفوح القفقاس. سلوا حفافى الكنج، وضفاف اللوار، ووادى الدانوب. سلوا عنا كل أرض فى «الأرض» وكل حى تحت السماء.

❁ ❁ ❁

نحن حملنا المنار الهادى، والأرض تتيه فى ليل الجهل، وقلنا لأهلها: هذا الطريق! نحن نصبنا موازين العدل يوم رفعت كل أمة عصا الطغيان. نحن بنينا للعلم دارًا يأوى إليها حين شرده الناس عن داره. نحن أعلنا المساواة يوم كان البشر يعبدون ملوكهم ويؤلهون سادتهم. نحن أحيينا القلوب بالإيمان، والعقول بالعلم، والناس كلهم بالحرية والحضارة.»

على طنطاوى

من كتاب «قصص من التاريخ»